أمثلة من الترجمة

Robert Menasse
Die Hauptstadt

Suhrkamp Verlag, Berlin 2017
ISBN 978-3-518-42758-3
صفحات 37-16 & 13-9

روبرت مينسه
"العاصمة"

ترجمة لبنى فؤاد (صفحات 9-13)

وسمير جريس (صفحات 16-37)

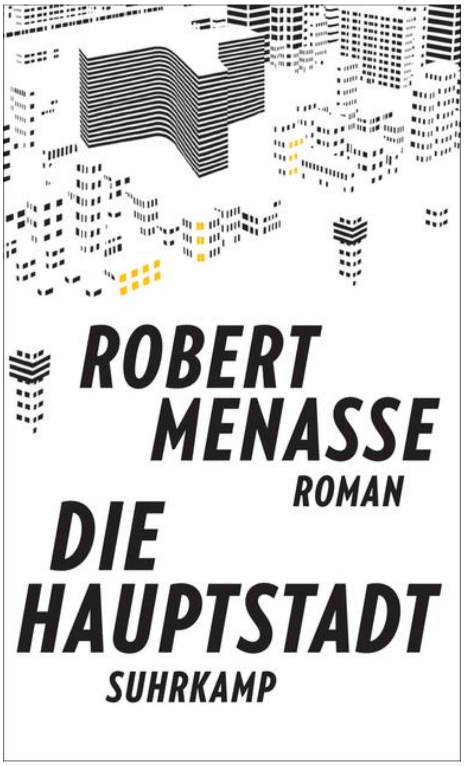

© 2018 Litrix.de

نبذة عن الرواية

روبرت ميناسا

العاصمة

الرواية الأوربية العظيمة

روبرت ميناسا: وصية لعصر يدفع إلى الإحساس بالعار

بروكسل.
تتعرض فينيا كسينوبولو الناجحة مهنيا لانتكاسة وظيفية، فقد تم "ترقيتها" من قِبل إدارة المؤسسة، وذلك بنقلها إلى القسم الثقافي – بلا ميزانية، بلا نفوذ، بلا شهرة، هكذا جاء "مشروع الاحتفال باليوبيل" في الوقت المناسب تماما بالنسبة لها، عليها أن تقوم بتلميع صورة المفوضية الأوربية، ينصحها مساعدها الشخصي نمساوي الأصل مارتن سوسمان بإعلان مدينة أوشفيتس كمنشأ للمفوضية الأوربية، تنال الفكرة استحسان فينيا إلا أنها أثناء ذلك لم تأخذ الدول الأوربية الأخرى بعين الاعتبار، النمسا: معسكر اعتقال نازي في بولندا يساء استخدامه من أجل تشويه سمعة الشعب النمساوي: مستحيل، بولندا: أوشفيتش مشكلة ألمانية، ألمانيا: الإسلام، في الوقت الحالي جزء من ألمانيا ليس له علاقة من بعيد أو قريب بأوشفيتس، بالإضافة إلى ذلك لم يعد بوسع فينيا أن تعول على ديفيد دو فريون، أحد آخر شهود العيان الناجين من أوشفيتس: فقد ذهب في الوقت الخطأ إلى محطة مترو مالبيك.
كذلك المفتش برونفو في وضع لا يحسد عليه، فقد تم منعه من استكمال التحقيق في قضية قتل وصل فيها لمستوى عالي من كشف الأدلة، إلا أنه لحسن الحظ تربطه علاقة صداقة بخبير الكمبيوتر الرئيسي لشرطة بروكسل والذي أتاح له الدخول إلى الملفات السرية للنيابة العامة للدولة، ماتك، القاتل البولندي لا يعلم أي شيء عن هذا كله عند هروبه، لكن هناك شيء واحد جلي بالنسبة له: أنه أطلق النيران على الشخص الخطأ، إلا أن ذلك لا يزعجه البتة، فقد كان يتمنى أن يصبح رجل دين، إلا أن أمنية أبيه وجده أن يصير مثلهما "جندي من جنود المسيح" لا تجعله سعيدا في الواقع.
نعم، هناك آخرون ليسوا سعداء أيضا: مربيو الخنازير الذين نزلوا إلى الشوارع حاملين المذاري اعتراضا على القيود التجارية التي تحظر عمليات التصدير المربحة لآذان الخنازير إلى الصين.

بروكسل. بانوراما الأبطال الدراميين، فاشلون متلاعبون، عقد نفسية لا ذنب لهم فيها، في أحدث روايته يفتح روبرت ميناسا قوسا بعيد المدى بين الأزمنة، الشعوب، بين المحتوم وسخرية القدر، بين البيروقراطية الحقيرة والمشاعر العظيمة.

© 2018 Litrix.de

روبرت ميناسا

العاصمة

رواية

دار نشر زوركامب

٢٠١٧

© 2018 Litrix.de

"السعادة تكمن في الحلم، والحياة فترة انتظار"

فيكتور هوجو

© 2018 Litrix.de

مقدمة

© 2018 Litrix.de

هناك يركض خنزير! رآه ديفيد دو فريون عندما فتح نافذة من نوافذ غرفة المعيشة بهدف إلقاء نظرة على الميدان للمرة الأخيرة قبل أن يغادر هذا المسكن للأبد، لم يكن إنساناً عاطفياً، لقد ظل يقطن هنا لمدة ستين عام، ستين عام ينظر لهذا الميدان، والآن يضع نهاية لذلك، انتهى الأمر، كانت تلك عبارته الأثيرة – في أي وقت عليه فيه أن يروي، يخبر، يؤكد شيئا يقول جملتين أو ثلاثة ثم بعدها: "انتهى الأمر"، تعد هذه العبارة بالنسبة إليه الخلاصة المقبولة الوحيدة لكل لحظة أو مرحلة من مراحل حياته، كانت شركة النقل قد حملت المتاع القليل الذي اصطحبه إلى العنوان الجديد، متاع – لفظ غريب إلا أنه بلا وقع مؤثر عليه، ثم جاء بعد ذلك رجال شركة التخلص من الكراكيب من أجل إزالة كل ما تبقى، ليس فقط كل ما هو ليس مثبتاً وإنما أيضا جميع البُرشام/ وصلات التثبيت والمسامير، لقد نزعوا، فصلوا، نقلوا كل شيء للخارج حتى أصبح المسكن نظيفا تماما كما يجب أن يكون، كان دو فريون قد صنع لنفسه قدحا من القهوة وقتما كان الموقد موجودا وآلة صنع الإسبريسو قائمة وهو يراقب الرجال محاذرا ألا يعرقل طريقهم، ظل لمدة طويلة ممسكاً بقدح القهوة الفارغ في يده، تركه أخيرا يسقط في كيس قمامة، ثم انصرف الرجال، المسكن خاوي، نظيف تماما، انتهى الأمر، تبقى نظرة أخيرة من النافذة، لم يكن هناك بالأسفل شيء لا يعرفه، والآن عليه الانتقال من المسكن، فقد حل زمن جديد – والآن رأى ... حقا: هناك بالأسفل خنزير! في قلب مدينة بروكسل، في سانت-كاترين، لابد أنه قد أتى من طريق دو لابري، يركض بامتداد سور البناء أمام البيت، انحنى دو فريون خارج النافذة وشاهد كيف ركض الخنزير الآن إلى اليمين عند منعطف طريق دو فيوه مارشيه أوه جران، متفاديا بعض المارة تقريبا أمام سيارة أجرة.

على إثر استخدام مكبح الطواريء اندفع كاي-أوفا فريج إلى الأمام ثم ارتد في المقعد إلى الخلف، تقلص وجهه، جاء متأخرا للغاية عن موعده، في مزاج عصبي، ما الذي حدث الآن ثانيا؟ لم يكن في الحقيقة متأخرا للغاية، كان الأمر فقط هكذا أنه يهتم دوما في جميع لقاءاته بالتواجد في المكان

© 2018 Litrix.de

عشر دقائق قبل الموعد المتفق عليه، بالأخص في الأيام الممطرة وذلك من أجل إعادة إصلاح هيئته سريعاً في المرحاض، الشعر المبلل بماء المطر، النظارات التي تقطر ماءا وذلك قبل قدوم الشخص الذي هو على موعد معه –

خنزير! هل رأيتم ذلك يا مسيو؟ هتف قائد سيارة الأجرة، لقد قفز تقريبا أمام السيارة! انحنى بشدة فوق عجلة القيادة: هناك! هناك! هل ترونه؟

الآن أبصره كاي-أوفا فريج، مسح بظهر يده سطح الزجاج، ركض الخنزير بعيدا إلى جانب الطريق، لمع الجسد المبلل للحيوان بلون وردي متسخ في ضوء المصابيح، نحن هنا، مسيو! لا يمكنني الاقتراب منه بسيارتي أكثر من ذلك، هكذا إذن! خنزير يكاد يركض داخل سيارتي! فأل حسن، هذا فقط ما يمكنني قوله في هذا الموقف!

جلست فينيا كسينوبولو في مطعم مينيلا إلى الطاولة الأولى بجانب النافذة الكبيرة وهي ترنو إلى الميدان، كانت تشعر بالغضب أنها جاءت قبل موعدها بوقت طويل، ليس من اللائق أن تكون جالسة هنا منتظرة عندما يأتي، كانت تشعر بالتوتر، فقد خشيت أن يكون هناك زحام بالطريق بسبب الأمطار فحسبت للطريق وقتا أطول مما يحتاج، الآن تجلس بالفعل مع مشروب الأوزو الثاني، يحوم النادل حولها فتحدث حركة جسده طنينا يشبه دبور مزعج، حدقت في الكأس ووجهت لنفسها أمرا ألا تمسه، أحضر النادل دورق مياه جديد، ثم أحضر صحنا صغيرا به زيتون - وقال: خنزير!

ماذا؟ رفعت فينيا نظرها، رأت النادل يتطلع في ذهول إلى الميدان بالخارج، والآن أبصرته: ركض الخنزير صوب المطعم، في سرعة مثيرة للضحك، هذه الأرجل القصيرة التي تهتز إلى الأمام وإلى الخلف تحت الجسد المستدير الثقيل، فكرت أولا أنه كلب، أحد تلك الوحوش المثيرة للاشمئزاز التي

© 2018 Litrix.de

يتم إطعامها جيدا من قِبل الأرامل، لكن – كلا لقد كان خنزيراً بحق! كأنه من كتاب مصور، رأت المنخار، الأذنين، كخطين، كملامح محددة، هكذا يُرسم الخنزير للأطفال، أما هذا فيبدو أنه أفلت من كتاب رعب للأطفال، لم يكن خنزيرا برياً، كان متسخاً لكنه بكل وضوح خنزير مزرعة وردي اللون، به شيء من جنون، شيء يهدد بالخطر، انسابت مياه الأمطار على النافذة إلى الأسفل، غامت الرؤية أمام فينيا كسينوبولو وهي تنظر كيف توقف الخنزير فجأة أمام بعض المارة بأرجل مفرودة، انزلق، ألقى بنفسه إلى جانب الطريق، انحرف نحو وجهة ثانية، أفسح لنفسه طريقا مرة أخرى وأسرع عائدا، في تلك المرة باتجاه فندق أطلس، في هذه اللحظة كان رايزارد أوزفيكي يغادر الفندق، حرص بالفعل عند خروجه من المصعد أثناء اجتياز بهو الفندق على شد غطاء رأس معطفه أعلى هامته، خطا الآن للخارج إلى الأمطار، في عجالة، لكن ليس في سرعة زائدة، لم يكن يريد إثارة الانتباه إليه، كان المطر بمثابة عامل حظ: غطاء الرأس، خطوة سريعة، كان ذلك في تلك الأجواء عاديا تماما وليس لافتاً للأنظار، لن يستطيع أحد أن يشهد لاحقا أنه شاهد رجلا يهرب، تقريبا في عمر كذا، يُقدر طوله بكذا، ولون المعطف - بالطبع، إنه يعرف اللون كذلك أيضا .. اتجه بسرعة إلى اليمين، فسمع حين ذلك هتافات منفعلة، صراخ وصوت لهاث غريب الصرير، توقف قليلا في المكان، نظر وراءه، الآن لاحظ الخنزير، لم يستطع تصديق ما رآه، هناك يقف خنزير بين اثنتين من تلك الدعامات الحديدية التي تحيط بمدخل الفندق، وقف هناك مطأطئ الرأس، في وضع الثور قبل انتقاله لمرحلة الهجوم، كان به شيء يثير الضحك، إلا أنه في الوقت ذاته ينذر بالخطر، بدا الأمر مثيرا للحيرة تماما: من أين جاء هذا الخنزير، كيف وقف هناك؟ تولد لدى رايزارد أوزفيكي انطباع أن كل مظاهر الحياة في هذا الميدان، على الأقل للمدى الذي يراه فيه الآن قد تحجرت وتجمدت، عكست أعين الحيوان الصغيرة لمعان ضوء النيون الخاص بواجهة الفندق – هنا بدأ رايزارد أوزفيكي يركض! ركض مبتعدا عن المكان باتجاه اليمين، تطلع مرة أخرى إلى

© 2018 Litrix.de

الخلف، شد الخنزير رأسه إلى أعلى وهو يزفر، رجع بعض خطوات للوراء، التفت وركض بعرض الميدان، إلى الجهة المقابلة نحو صف الأشجار أمام المركز الثقافي الفلمنكي دو ماركتن، تابع المشاة المراقبون المشهد بأعينهم الخنزير وليس الرجل صاحب غطاء الرأس – والآن أبصر مارتن سوسمان الحيوان، كان يقطن البيت المجاور لفندق أطلس، فتح في تلك اللحظة بالذات النافذة بهدف تهوية المكان ولم يصدق عينيه: بدا ذلك كأنه خنزير! كان يفكر للتو في حياته، في تلك المصادفات التي أدت به كابن لفلاحين نمساويين للعيش والعمل في بروكسل في الوقت الحالي، كان في حالة شعورية صورت له كل شيء خارج نطاق العقل وغريب، إلا أن خنزيرا يركض مطلق السراح هناك بالأسفل في الميدان كان أمراً جنونياً زائداً عن الحد، لا يعدو كونه مزحة من نسج خياله، انعكاساً لذكرياته! مد بصره إلا أنه لم يعد يرى الخنزير.

ركض الخنزير صوب كنيسة سانت-كاترين، عبر شارع سانت-كاترين، توقف إلى اليسار متفاديا السائحين الخارجين من الكنيسة، جرى عابرا الكنيسة إلى كوا أوه بريك، ضحك السائحون، اعتبروا الحيوان المضطرب، الموشك بالفعل على الانهيار فولكلورا/ فنا شعبيا، ظاهرة ما من الظواهر المحلية، يمكن أن يقوم بعضهم لاحقا بالبحث في دليل الرحلات إن كان هناك تفسير لوجودها، ألا يتم إطلاق ثيران عبر الشوارع في مدينة بامبلونا الإسبانية في يوم احتفالي ما؟ ربما يحدث ذلك في بروكسل مع الخنازير؟ عندما يعايش المرء ما لا يمكن استيعابه حيث لا يتوقع أبدا أن يفهم كل شيء - لكم تكون الحياة حينها مثيرة للمرح.

في تلك اللحظة انعطف جودة مصطفى عند ناصية الشارع وكاد أن يصطدم بالخنزير، كاد؟ بل ألم يلمسه حقا، يحتك بساقه؟ خنزير؟ قفز جودة مصطفى من الذعر إلى جانب الطريق، فقد توازنه وسقط أرضا، رقد الآن في بقعة ماء، أخذ يتقلب فيها، مما زاد الطين بلة/ الأمر سوءا، إلا أنه لم

© 2018 Litrix.de

يكن وسخ الماء المتراكم، لقد كان الاحتكاك - إن كان هناك احتكاك من الأصل - بالحيوان النجس هو ما جعله يشعر بالاتساخ.

هنا أبصر يدا تمتد إليه في الأسفل، رأى وجه رجل يكبره سناً، وجهاً حزيناً، مهموماً، مبللا بمياه الأمطار، بدا الرجل المسن يبكي، كان ذلك هو البروفيسور ألوا إيرهارد، لم يميز جودة مصطفى ما قال، ميز/ سمع فقط كلمة: "okay„.

!Okay! Okay، قال جودة مصطفى.

استكمل البروفيسور إيرهارد حديثه باللغة الإنجليزية، ذكر أنه هو أيضا قد سقط اليوم بالفعل، إلا أنه كان مرتبكا لدرجة أنه قال "failed„ بدلا من "fell„ ، لم يفهمه جودة مصطفى فعاود قول: .Okay!

في تلك اللحظة جاء الضوء الأزرق، النجدة، شرطة، تبدل الميدان بأكمله، أومض، غرق في الضوء الأزرق، أسرعت عربات المهام وهي تعوي إلى فندق أطلس، تواطأت سماء بروكسل: هطلت الأمطار، بدت السماء الآن تمطر قطرات ماء براقة بلون أزرق، بالإضافة إلى ذلك حلت الآن رياح دافعة قوية – نزعت مظلات بعض المارة إلى أعلى وقلبتها رأسا على عقب، أمسك جودة مصطفى بيد بروفيسور إيرهارد، تركه يساعده على النهوض، كان أبوه قد حذره من أوربا.

© 2018 Litrix.de

روبرت ميناسه

العاصمة

رواية

ترجمة: سمير جريس

© 2018 Litrix.de

الفصل الأول

ليس هناك بالضرورة علاقات بين الأشياء،

ولكن بدونها سينهار كل شيء.

© 2018 Litrix.de

من اخترع المستردة؟

ليست هذه بداية جيدة لرواية. من ناحية أخرى: ليست ثمة بداية جيدة، لأنه ليس ثمة بداية، سواء جيدة أو سيئة. أي جملة أولى محتملة هي نهاية – حتى إذا تواصل الكلام بعدها. تلك الجملة تقف في نهاية آلاف من الصفحات التي لم تكتب أبدا: أعني ما قبل الحكاية.

عندما يشرع القارئ في قراءة رواية ينبغي عليه في الحقيقة أن يقلب الصفحات إلى الوراء بعد الجملة الأولى مباشرة. كان ذلك هو حلم مارتِن سوسمان. كان يريد أن يصبح حكّاء لما قبل الحكاية. كان قد قطع دارسته في علم الآثار، ثم – ولكن الأمر سواء، هذا جزء من الحكاية التي تسبق الحكاية، وعلى كل بداية رواية أن تتجاهلها، وإلا لن نصل في النهاية أبدا إلى بداية.

جلس مارتن سوسمان إلى مكتبه بعد أن أزاح "اللابتوب" جانبا، ثم راح يضغط على أنبوبتي مستردة من نوعين مختلفين. نظر إلى المستردة على طبقه، مستردة إنجليزية حارة، وأخرى ألمانية حلوة، ثم تساءل: مَن اخترع المستردة؟ مَن خطر على باله هذه الفكرة الغريبة، فكرة صنع "صوص" يغطي تماما على المذاق الطبيعي للطعام، دون أن يتسم في حد ذاته بطعم جيد؟ وكيف أمكن للمستردة أن تفرض نفسها كسلعة جماهيرية؟ إنها، هكذا قال لنفسه، منتج مثل الكوكاكولا. منتج لن يفتقده أحد إذا لم يكن موجودا. في طريقه إلى البيت مرّ سوسمان على فرع "دوليز" في شارع "أنسباك"، واشترى زجاجتي نبيذ، وباقة من زهور التيوليب، وسجقا، ومستردة بالطبع. اشترى أنبوبتين لأنه لم يستطع أن يقرر ما إذا كان يريد مستردة حارة أو حلوة.

والآن، ها هو السجق يقفز ويئز فوق سطح المقلاة، إذ إن الشعلة كانت أقوى من اللازم. احترقت الزبدة، وتفحم السجق، رغم ذلك لم يهتم مارتن. جلس، وراح يحدق في دوائر المستردة على طبقه، دوائر صفراء وفاتحة قليلا، وإلى جانبها حلقات بنية غامقة، وتلك الأشكال الصغيرة التي بدت كأنها براز كلاب. لم يَرِد في الكتب المتخصصة أن التحديق في المستردة على الطبق، في حين أن السجق يحترق في المقلاة، هو أحد العوارض الواضحة للإصابة بالاكتئاب – رغم ذلك يمكننا أن نفسر الأمر على أنه كذلك.

المستردة على الطبق. النافذة المفتوحة، المطر الغزير المتساقط بالخارج. الهواء الفاسد، رائحة اللحم المتفحم، طقطقة الأمعاء المتشققة والزبد المحترق، الأشكال الشبيهة من براز الكلاب على الطبق الخزفي – عندئذ سمع مارتن سوسمان الطلقة.

© 2018 Litrix.de

لم يفزع. يشبه الصوت أن يقوم أحد في الشقة المجاورة بفتح زجاجة شمبانيا. ولكن، ليس ثمة شقة خلف الجدار الرقيق للغاية، بل حجرة في فندق. بجواره فندق أطلس – يا له من اسم تفخيمي لهذا الفندق الصغير الذي ينزل فيه في المقام الأول ممثلو جماعات الضغط؛ يدخلونه منحني الظهر، ساحبين وراءهم حقائبهم التي تسير على عجل. من حين إلى آخر كان يتناهى عبر الجدار إلى سمع مارتن سوسمان – دون أن يكترث بالأمر – أشياء لم يكن بالضرورة يريد أن يسمعها. تلفزيون الواقع، أو – مَن يعرف – ربما الواقع فحسب، شخير أو تأوهات.

ازداد المطر غزارة. تولدت لدى مارتن رغبة في مغادرة المنزل. كان قد استعد جيدا للإقامة في بروكسل. في حفل الوداع الذي أقامه في فيينا حصل على هدايا حاول أصحابها قدر جهدهم أن تكون مفيدة ونافعة خلال تأثيث شقته في بروكسل، ومن بينها عدة مظلات تقيه من المطر – من المظلة البريطانية كلاسيكية الطراز "لونج"، مرورا بالألمانية "كنيربس"، ووصولا إلى الإيطالية "ميني" بثلاث ألوان من "بنيتون" – إضافة إلى معطفين واقيين من المطر عندما يقود الدراجة.

جلس ساكنا أمام طبقه محدقا في المستردة. فيما بعد استطاع أن يقول للشرطة بدقة متى أُطلقت الرصاصة، وذلك لأنه تحمس لفتح زجاجة نبيذ لنفسه عندما سمع ما ظنه فرقعة زجاجة شمبانيا. كان يرجئ الشراب كل يوم إلى آخر النهار بقدر الإمكان، ولم يكن يحتسي الخمر أبدا قبل السابعة مساء. ألقى نظرة على الساعة: كانت السابعة والنصف وخمس دقائق. سار إلى الثلاجة، وأخرج النبيذ، وأغلق الموقد، ثم ألقى بالسجق في صفيحة الفضلات، ووضع المقلاة في حوض المطبخ، ثم فتح حنفية المياه. سمع "طشطشة" المياه على سطح المقلاة الساخن. "توقف عن البحلقة في الحيطة!": هكذا كانت أمه تنهره عندما يجلس أمام كتاب، محملقا أمامه بنظرة ضائعة، بدلا من أن يساعدهم في تقديم العلف للخنازير أو في تنظيف الزرائب.

جلس الدكتور مارتن سوسمان هناك، وأمامه طبق عليه مستردة. صب لنفسه كأسا من النبيذ، ثم كأسا أخرى، النافذة مفتوحة، بين الحين والآخر كان ينهض، ويقف عند النافذة ملقيا نظرة قصيرة على الشارع، ثم يجلس ثانية إلى المائدة. عند الكأس الثالثة نفذ ضوء أزرق من النافذة ثم عَبَرَ جدار الغرفة. في المزهرية الموضوعة على المدفأة لمعت زهور التيوليب بلون أزرق منسجم مع الضوء الساطع من الخارج. رنّ التليفون. ألقى مارتن سوسمان نظرة على الشاشة ليعرف مَن المتصل. لم يجب على المتصل.

الحكاية التي تسبق الحكاية. إنها مهمة جدا، وفي الوقت نفسه تبرق مهتزة في الخلفية مثل الضوء الأبدي في كنيسة سانت كاترين، على الجانب الآخر من ميدان "فيو مارشيه أو جران" حيث يسكن مارتن سوسمان.

© 2018 Litrix.de

لجأ عدد قليل من المارة إلى الكنيسة هربا من المطر. وقفوا هناك مترددين، أو تجولوا في الكنيسة، أما السائحون فراحوا يقلبون في الدليل السياحي الذي يحملونه، متتبعين أهم المعالم: "المادونا السوداء، القرن الرابع عشر"، "بورتريه القديسة كاترين"، "منبر على الطراز الفلمنكي التقليدي، من المرجح أن يكون من مدينة مالين"، "شواهد قبور من جيل–لامبرت جودشارل" ...

ثم وميض آلات التصوير بين الحين والآخر.

على ما يبدو فإن الرجل الذي جلس وحده على دكة في الكنيسة كان يصلي. الكوعان على المسند، الذقن يرتاح على اليدين المتشابكتين، والظهر مقوس. كان يرتدي سترة سوداء ذات قلنسوة غطت رأسه، لو لم يكن مكتوبا على ظهر الجاكت اسم البيرة الأيرلندية Guinness، لظن المرء للوهلة الأولى أنه راهب بزيه التقليدي.

بالتأكيد ارتدى الرجل السترة والقلنسوة بسبب المطر في بروكسل، غير أن الانطباع الذي أثاره، فضح شيئا مبدئيا بخصوص هذا الرجل. كان، على طريقته، راهبا حقا، فهو يعتبر الرهبنة – أو ما يفهمه من تلك الكلمة: النُسك، والتأمل، والتدريبات الروحية – هي طريق الخلاص في حياة مهددة دائما بالفوضى والتشتت. لم يكن ذلك مرتبطا بالنسبة له بطائفة معينة أو دير، أو باعتزال العالم: بإمكان كل رجل، بل يتحتم عليه – أيا كانت مهنته أو وظيفته – أن يكون راهبا في مجاله، يركز انتباهه على المهمة التي يقوم بها كعبدٍ لإرادة عليا.

يحب أن يتأمل في الرجل المعذب على الصليب وأن يفكر في الموت. في كل مرة كان ذلك يعني تنقية للحواس، وتجميعا للأفكار، وحشدا للطاقة.

كان هذا هو ماتيوش أوسفتيسكي. أما الاسم الذي ناله عند المعمودية، وهو مسجل أيضا في جواز سفره، فهو ريشارد. تحول أوسفتيسكي إلى ماتيوش عندما تتلمذ في معهد أكاديمية لوبرانسكي في بوزنان حيث يحصل كل "برعم نابه" على اسم من أحد عشر اسما لتلاميذ المسيح. عُمِد ومُسِح بالزيت مرة ثانية، ونال اسم "متى العشار". احتفظ بالاسم، كاسم حركي، رغم أنه ترك المعهد. على الحدود التي كان ينبغي عليه فيها أن يظهر جواز سفره، كان يمر باعتباره "ريشارد". أما لدى المخابرات فهو كان معروفا – استنادا على أقوال بعض أفراد الاتصال – باسم "ماتيك"، وهو اسم الدلع لـ"ماتيوش". هكذا كان زملاؤه ينادونه. كان يقوم بمهمته باعتباره "ماتيوش"، ويتم البحث عنه باسم "ماتيك"، وكـ"ريشارد" يتسلل من الحدود.

لم يكن أوسفتيسكي يصلي. لم يكن في صمت يصوغ جملا تبدأ بـ "يا رب"، جملا ليست سوى أمنيات، "امنحني القوة – "، لكي أفعل هذا أو ذلك، أو "بارِك –" في هذا الشيء أو ذاك ... لا يتمنى المرء شيئا من روح مطلقة صامتة. راح يتأمل الرجلَ المُسَمّرَ على الصليب. إن الخبرة التي مرّ بها هذا

© 2018 Litrix.de

الإنسان من أجل البشرية، ثم نطق بها في النهاية، هي خبرة الإنسان الوحيد تماما في لحظة المواجهة مع المطلق: عندما تُخدَش الغلالة، ثم تُشَق، وُتفتَح، وُتخرَق، وتُمزَق، عندما تصرخ الحياة ألما، وتتحول الصرخات إلى بكاء مكتوم، ثم تنتهي إلى الصمت. إن الحياة تقترب من روح القدير في الصمت فحسب، الروح التي أطلقت عكس وجودها في نزوة هائلة: الزمن. بمقدور الإنسان منذ لحظة ميلاده أن يعود بالفكر إلى الوراء، وإلى الوراء، ثم إلى الوراء، إلى الأزمان السحيقة، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى بداية، ولن يستطيع بمصطلح بائس مثل الزمن أن يفهم سوى شيء واحد: إنه لم يكن موجودا منذ الأزل. كما يستطيع أن يستشرف المستقبل بالفكر، انطلاقا من لحظة الموت متطلعا إلى المستقبل بأكمله، ولكنه لن يصل إلى نهاية، كل ما سيدركه هو أنه لن يظل موجودا إلى الأبد. أما الزمن فهو تلك الفترة بين الأزل والأبد – الصخب، وتداخل الأصوات، وضجيج الآلات، وزئير المحركات، وقعقعة السلاح ودوي طلقاته، وآهات الألم، وصرخات الشبق اليائسة، الفرق الغنائية المكونة من الجماهير الغاضبة والمخدوعة في بهجة، هزيم الرعد ولهاث الخوف في هذه البقعة الميكروسكوبية من الأرض.

تأملَ ماتيوش أوسفنتيسكي الرجلَ المعذب.

لم يفرد كفيه في وضع الصلاة. لم يضغط بأظافر أصابعه المشبكتين على ظهر اليد إلى أن تطقطق المفاصل وتحمر البشرة. شعر بألم أقدم من وجوده نفسه. يستطيع أن يستدعي في كل لحظة هذا الألم بسرعة. عاش جده ريشارد في مطلع عام 1940 تحت الأرض لكي يناضل في المقاومة البولندية ضد الألمان تحت قيادة الجنرال شتيفان روفيكي. وُشي به في أبريل من العام نفسه، ثم أُلقي القبض عليه، وعذب، وفي النهاية أُعدِمَ باعتباره مقاوما رميا بالرصاص في ساحة عامة في لوبلين. كانت الجدة آنذاك حاملا في الشهر الثامن، ورأى الطفل نور العالم في كيلس في مايو 1940، وحصل على اسم والده. ولتجنب الالتصاق بقبيلته، نُقل ليعيش مع عائلة عمه الأكبر في بوزنان. وهنا نشأ وكبر، وفي عمر السادسة عشرة عايش الانتفاضة. انضم الطالب الفتي إلى مجموعة الرائد فرانزاك مناضلا في المقاومة المناهضة للشيوعية. كُلف بالقيام بأعمال تخريبية، ثم بخطف المخبرين العاملين لدى شرطة أمن الدولة، وفي عام 1964 وشى به أحد الرفاق مقابل 6000 زلوتي. أُعتقل في شقه سرية، وعُذب حتى الموت في أحد أقبية أمن الدولة. كانت عروسه حاملا في تلك الفترة، وجاء طفلها إلى العالم في فبراير 1965 في قرية كويتشه جورنه، فعمدته على اسم جده الكبير واسم والده. مرة أخرى، ها هو ابن لن يستطيع التعرف إلى أبيه. حكت الأم القليل. ذات مرة: "كنا نتقابل في الحقول أو في الغابة. كان يأتي إلى مواعيدنا الغرامية حاملا مسدسا وقنابل."

جد صامت أبدا. أب صامت أبدا. الدرس الذي تعلمه ماتيك هو أن البولنديين ناضلوا دائما من أجل حرية أوروبا، وكل شخص بدأ النضال شبّ ونما في صمت، وناضل إلى أن التحف بالصمت.

© 2018 Litrix.de

ذهبت أمه معه إلى الكهنة، وبحثت عن مَن يستطيع أن يقدم له الدعم، ودفعت مالا مقابل خطابات توصية. كانت تثق في الحماية التي توفرها الكنيسة. وفي النهاية أدخلته المعهد الديني في بوزنان ليتعلم مع رفاقه. وهناك خبر بنفسه هشاشة الجسد البشري: الدم مادة تشحيم وتليين للولوج إلى غلالة الجسد، أما البشرة فليست سوى أديم رقيق نَدي، وعليه تَرسمُ سكينٌ خرائطَ، الفم والعنق الصارخ ثقب أسود لا بد من حشوه إلى أن يحتضر آخر صوت، ثم يمتص الثقب في سكون ما قد تهبه الحياة. وهناك تعرف إلى مفهوم جديد تماما لكلمة "تحت الأرض". عندما حصلت "البراعم" على أسماء تلاميذ المسيح، تم اقتياد الفتيان إلى السراديب المحفورة تحت الكاتدرائية الرائعة بحق في بوزنان، إلى الأقبية السرية تحت الأرض وإلى حجرات الدفن، وذلك عبر درج حجري كان يستطع ويلمع في ضوء المشاعل، نزولا إلى الدرج الأسفل، عبر النفق الحجري الخشن، النفق الأخير المؤدي إلى حجرة اتضح أنها كنيسة صغيرة في عمق الأرض، كنيسة الموت والحياة الأبدية: قبو ذو سقف معقود، تم حفره في القرن العاشر الميلادي على عمق مئة ياردة في صخور الأرض البولندية المشبعة بالدماء. في واجهة هذه الحجرة ثمة صليب عملاق عليه تمثال للمسيح طبيعي إلى درجة الرعب، وخلفه نقوش لملائكة بدت بارزة من الحجر أو غائرة فيه أو كأنها تخترقه، حية إلى درجة مرعبة في الضوء المرتعش الصادر عن لهب المشاعل. وفي الأمام تمثال للسيدة العذراء كما لم يرها ريشارد الشاب أبدا، ولا في أي كنيسة، أو في أي صورة في كتبه: كان وجهها مختفيا تماما خلف وشاح لفته على جبهتها وأنفها وفمها، ولم يبق سوى فتحة صغيرة يرى المرء من خلالها عيناها، المحجران عميقان وميتان تماما، وهل يمكن للمحجرين أن يكونا غير ذلك بعد كل تلك الدموع التي ذُرفت خلال آلاف من السنين؟ كل هذا، وكذلك المذبح أيضا، تم تشكيله من الحجر والرواسب الحجرية التي خلفتها الطبقات الجيولوجية. دكك من الحجر البارد، وعليها – في ظهر ريشارد والبراعم الأخرى من التلاميذ – كان يجلس أحد عشر راهبا في ثيابهم السوداء، ورؤوسهم المحنية مغطاة بالقلنسوة.

قادوا التلاميذ عبر الممر الأوسط وسط الرهبان المصلين إلى أن وصلوا إلى المسيح في الأمام، وهناك رسموا الصليب، ثم قيل لهم أن يلتفتوا إلى الوراء. نظر ريشارد خلفه، فلاحظ أن تحت كل قلنسوة كانت تبرق جمجمة ميت، أما المسبحة في يد كل راهب فكانت معلقة على أطراف الأصابع – هؤلاء الرهبان كانوا هياكل عظمية.

الإنسان تحت الأرض أقرب إلى الرب منه على قمم الجبال.

دق ماتيوش أوسفتيسكي بأطراف أصابعه على جبهته. شعر بذاته ثقيل الجسد، عفن الرائحة. وفي تجويف بطنه، إلى اليسار تحت السرة، شعر بحرقان. أدرك أن الموت يحترق هناك. لم يثر ذلك خوفه. بل نزع عنه الخوف.

© 2018 Litrix.de

كانت تلك الهياكل العظيمة في ثياب الرهبان هي رفات الأسقف المبشِّر والأعضاء الذين أسسوا المعهد الديني في أبرشية "بوزن". منذ نحو ألف عام ظلوا هنا معتصمين بالصلاة الصامتة أبدا. أمام هذه الهياكل الأحد عشر كان كل برعم في المعهد ينال اسما من أسماء تلاميذ المسيح. أحد عشر؟ بدون يهوذا؟ بلى. ولكن من التكبر منح تلميذ اسم بطرس، نائب المسيح الأول على الأرض. من يصطفونه، يتحول من يوحنا أو بولس إلى بطرس.

ضغط ماتيوش أوسفتيسكي بكفيه على أذنيه. ما أكثر الأصوات في رأسه! أغلق عينيه. ما أكثر الصور! لم تكن تلك ذكريات، ولا الحكاية التي تسبق الحكاية. استحضر ذلك الآن، وهو يجلس أمام المصلوب. مثل الحرقان في البطن. لم يشعر بخوف، شعر بانقباض الصدر فحسب، وكأن المرء سيواجه اختبارا كبيرا، أو سيقوم بمهمة جسيمة. الاختبار الذي يؤديه المرء مرة واحدة في حياته هو أصعب الاختبارات. فتح عينيه ثانية، وتطلع إلى الجرح في جانب المخلص.

كان ماتيوش أوسفتيسكي يحسد في الحقيقة ضحاياه. لقد تجاوزوا الأمر.

نهض، وخرج من الكنيسة الحجرية، وألقى نظرة قصيرة على الجانب الآخر من الشارع حيث كان الضوء الأزرق لسيارات الشرطة يتراقص أمام فندق أطلس، ثم مشى ببطء وبرأس منكسة، كانت قلنسوته مشدودة إلى آخرها حتى غطت جبهته. سار في المطر إلى محطة مترو "سانت كاترين".

عندما عاد ألويز إرهارت إلى فندق أطلس، مُنع في البداية من دخوله. على الأقل فسر هو يد الشرطي الواقف على المدخل والمرفوعة في اتجاهه كأمر بالوقوف. لم يفهم ما قاله الشرطي، فهو لا يتقن الفرنسية.

كان قد رأى من بعيد الضوء الأزرق الدوّار الصادر عن سيارات الشرطة والإسعاف – فظن أن شخصا انتحر. سار ببطء في اتجاه الفندق، وعلى الفور انتابه مرة أخرى الشعور الذي سيطر عليه في الظهيرة: وكأن الخواء الذي يسقط فيه كل إنسان، إن آجلا أو عاجلا، قد تمدد في صدره وبطنه فجأة، وكأنه إعلان عن شيء أو مطالبة بشيء. منقبض الصدر، مبهور الأنفاس شعرَ أن الأمر معجزة، أن الخواء المتنامي من الممكن أن يتمدد إلى ما لا نهاية في غلالة الجسد الضيقة. الروح كثقب أسود يلتهم كل الخبرات التي مر بها طوال حياته ثم يُخفيها، ولا يعود يتمدد سوى الخواء، الفراغ المطلق، حالك السواد، ولكن بدون وداعة ليلة تخلو من النجوم.

ها هو يقف هناك، أمام الدَرَج المؤدي إلى مدخل الفندق، عظامه تؤلمه بسبب إجهاد العضلات المتوترة، وخلفه عدد قليل من الفضوليين محبي الفرجة. عندئذ قال بالإنجليزية إنه نزيل في هذا الفندق،

© 2018 Litrix.de

وأن لديه غرفة – لكن ذلك لم يغير شيئا من وضع الذراع الممدودة. كان الموقف في رأيه سورياليا للغاية لدرجة أنه لن يتعجب لو ألقوا القبض عليه. لكنه لم يكن مجرد رجل طاعن في السن بدأ جسده يخذله على نحو نهائي، إنه أيضا البروفيسور المتقاعد د. إرهارت الذي ظل طوال نصف حياته يمثل سلطة علمية. قال بحسم إنه سائح. يسكن هنا! في هذا الفندق. وهو يرغب الآن في التوجه إلى غرفته. اصطحبه الموظف إلى "اللوبي"، ثم أوصله إلى رجل في منتصف العقد الخامس يبلغ طوله نحو المترين، يرتدي بدلة رمادية ضيقة للغاية. طالبه الرجل بأن يبرز بطاقة هويته.

لماذا وقف البروفيسور برأس منكسة؟ سلط بصره على البطن الكروي المنتفخ لهذا الرجل، وشعر فجأة بالشفقة. هناك بشر يبدون في وجودهم الفيزيائي الضخم أقوياء للأبد، يتمتعون دائما باللياقة، لا يمرضون أبدا، إلى أن يرقدوا فجأة وكأن البرق أصابهم، ويقضون نحبهم في عمر يقول عنه الناس: ليس هذا عمرا يتوفى المرء فيه. كانوا يشعرون بالفخر بسبب بنيتهم الجسدية التي تجعلهم يعتقدون أنهم خالدون مخلدون، طالما أن باستطاعتهم أن ينصبوا قامتهم أمام الآخرين وأن يسيروا في الاتجاه الذي يريدونه. لم يواجه هؤلاء الناس أبدا سؤالا حول القرار الذي سيتخذونه إذا تقدموا في السن ومرضوا مرضا عضالا، أو تحولوا في غضون فترة قصيرة إلى حالة تستوجب الرعاية. هذا الرجل هش ومتعفن في داخله، وسيسقط قريبا، هو لا يعلم فحسب.

قدم له البروفيسور إرهارت جواز السفر.

– متى وصل؟

.Parlez-vous français? No? English?

متى غادر الفندق؟ وهل كان متواجدا في الفندق بين الساعة السابعة والثامنة مساء؟

– لماذا كل هذه الأسئلة؟

– فريق التحقيق في جرائم القتل. ثمة رجل لقي مصرعه بالرصاص في إحدى غرف هذا الفندق.

تؤلمه ذراعه اليمنى. فكر البروفيسور إرهارت إنه ربما لفت الأنظار لأنه يمر بيده على ذراعه المرة بعد الأخرى، ضاغطا على الذراع ومدلكا إياه.

أخرج من الجيب الجانبي في معطف المطر الكاميرا الرقمية وضغط على زر التشغيل. استطاع أن يظهر له أين كان: التوقيت مثبت على كل صورة.

ابتسم الرجل. وشاهد صورة بعد أخرى. بعد الظهر في الحي الأوروبي، ميدان شومان. مبنى برلامون، مقر المفوضية الأوروبية، ومبنى يوستوس لبسيوس، مقر المركز الصحفي للمجلس الأوروبي. صورة للافتة الشارع "شارع يوزيف الثاني".

© 2018 Litrix.de

- لماذا التقطت هذه اللافتة؟

- أنا نمساوي!

- آه.

تمثال "أوروبا الحلم" في شارع "دو لا لوي". التمثال البرونزي لرجل أعمى (أم أنه يسير نائما؟)، يقف على قاعدة التمثال ويخطو إلى الفراغ. ما أكثر ما يصوره السياح! هنا. الساعة السابعة والربع: الساحة الكبيرة. عدة صور حتى الساعة السابعة وثماني وعشرين دقيقة. ثم الصورة الأخيرة: الثامنة وأربع دقائق، سانت كاترين، صحن الكنيسة. واصل الرجل الضغط على الزر لرؤية مزيد من الصور، فلم ير سوى الصورة الأولى. رجع بالصور إلى الوراء. المسيح، المذبح، وأمامه رجل يجلس على دكة، وعلى ظهره كلمة Guinness.

ابتسم، وأعاد له آلة التصوير.

عندما دخل ألويز إرهارت غرفته، سار إلى الشباك، ملقيا نظرة عبر اللوح الزجاجي إلى المطر، ثم مر بيده على شعره المبتل، وأصغى إلى صوته الداخلي. لم يسمع شيئا. عندما وصل في الظهيرة، فتح النافذة على الفور، ثم مد رأسه وجذعه ليلقي نظرة أفضل على الساحة، انحنى إلى الأمام انحناءة أكبر مما ينبغي، كاد يفقد توازنه، لم يعد يجد أرضا تحت قدميه، ورأى الأسفلت يقترب من وجهه، سار الأمر بسرعة فائقة، فدفع بنفسه إلى الوراء، ووقع على الأرض أمام الشباك واصطدم ساعده الأيمن بالتدفئة. جلس على الأرض بالتواء في وضع يثير الضحك – شعر وكأنه يسقط سقوطا حرا، هو ما تجنب حدوثه لتوه، شعور قد يشعر به الإنسان في الثانية التي تسبق الموت. عندئذ شد قامته، وجلس على السرير، لاهثا، ثم فجأة اجتاحته الحماسة: إنه حر. ما زال. مستقل في قراره. وسوف يتخذ قرارا. ليس الآن. ولكن في الوقت المناسب. سيقتل نفسه – يا له من تعبير سخيف! سيقرر بنفسه مصيره، إنسان حر! كان يعرف أن عليه أن يفعل ذلك؛ فجأة عرف أيضا أن بمقدوره ذلك. الموت – هذا ما أدركه الآن – تافه وباطل وحتمي، مثل آخر نقطة في جدول الأعمال. كانت تلك هي اللحظة التي لا يعود يأتي فيها شيء آخر. عليه أن يقفز فوق الموت. أن يقفز.

لا يريد أن يموت كما ماتت زوجته. كانت عاجزة في النهاية، معتمدة عليه أن يقدم لها ...

تناول جهاز التحكم عن بعد وضغط على زر تشغيل التلفزيون. خلع القميص، فرأى كدمة على ذراعه اليمنى. واصل الضغط على جهاز التحكم عن بعد. خلع السروال، وواصل الضغط! الجوارب، وواصل الضغط! السروال الداخلي، وواصل الضغط! كان قد وصل إلى محطة Arte. لقد بدأ لتوه فيلم كلاسيكي:

© 2018 Litrix.de

"من هنا إلى الخلود". مرت عقود على مشاهدته هذا الفيلم. استلقى على السرير. قال صوت: "هذا الفيلم تقدمه لكم وكالة parship.de، الوكالة الرائدة للعثور على شريك الحياة."

لم يكن الأمر من قبيل الصدفة أن "فينيا إإكسينوبولو" كانت تفكر في الإنقاذ في تلك اللحظة تحديدا، عندما انعطفت سيارة الإسعاف والإنقاذ لتدخل الساحة، وعندما سُمعت صفارات الإنذار. منذ أيام وهي لا تفكر في شيء آخر، لقد تحول الأمر إلى فكرة مسيطرة، ولهذا قالت لنفسها الآن أيضا: الإنقاذ! عليه أن ينقذني!

كانت تتناول طعام العشاء في مطعم "مينيلاس" الذي يقع في مواجهة فندق أطلس تماما. يجلس معها كاي أوفه فريجه الذي كانت تطلق عليه "فريزر" منذ العلاقة الغرامية العابرة التي ربطت بينهما قبل عامين. بدلال لم تحسم الأمر، هل حورت اسمه الألماني "فريتس" إلى "فريزر"، أم أنها تلمح إلى الثلاجة لأنه سلوكه الموضوعي المستقيم يترك انطباعا بالبرود. فريجه – رجل مرن، نحيف وطويل، في وسط العقد الرابع، يتحدر من هامبورج ويعمل منذ عشر سنوات في بروكسل، كان محظوظا (أو بالأحرى لم يعتمد على حظه) خلال الصراعات والمؤامرات والصفقات التي تسبق بطبيعة الحال تشكيل أي مجلس جديد في المفوضية الأوروبية، وحقق طفرة مهمة في السلم الوظيفي: والآن كان مديرا بالإدارة العامة للتجارة، وبذلك رئيس مكتب عظيم النفوذ لأحد أهم المفوضين في الاتحاد الأوروبي.

لم تكن فكرة اللقاء في هذا المطعم اليوناني تحديدا – والذي اتضح أنه مطعم متوسط – في مدينة مكتظة بالمطاعم فائقة الجودة، ترجع إلى رغبة فينيا إإكسينوبولو، فهي لم تكن تشعر بالحنين إلى الوطن، ولا بشوق إلى مذاق أو رائحة المطبخ اليوناني. الاقتراح جاء من كاي أوفه فريجه: لقد أراد أن يظهر تضامنه مع زميلته اليونانية، الآن تحديدا، بعد أن أوشكت الدولة اليونانية أن تعلن إفلاسها، وبعد حزمة الإنقاذ الأوروبية الرابعة المكلفة للغاية، وبعد أن أصبحت سمعة "اليونانيين" عند الزملاء ولدى الرأي العام في الحضيض. كان متأكدا من نقطة في صالحه عندما كتب اقترح في الميل: "مينيلاس؟ Marché Vieux aux Grains، عند كاتدرائية سانت كاترين، يقولون إنه مطعم يوناني جيد جدا!"، وهي أجابت قائلة: "أوكي". لم يكن الأمر يمثل فارقا بالنسبة لها. كانت تحيا وتعمل منذ فترة طويلة جدا في بروكسل، ولهذا لم تعد تهتم بالمشاعر الوطنية. الشيء الذي تريده هو الإنقاذ، إنقاذ ذاتها.

قال فريجه إن إطلاق اسم "مظلة الإنقاذ" على الصناديق المالية التي ينبغي أن تحول دون إفلاس اليونان، كان أمرا مضحكا، وإن كان ذلك غير مقصود. كما تعلمين، استخدام الصور البلاغية في المفوضية ضرب من الحظ!

© 2018 Litrix.de

لم تدخل هذه الملاحظة في نفس فينيا إكسينوبولو أي سرور، ولم تفهم حتى ما يعنيه، غير أنها ضحكت حتى أشرق وجهها. شعرت أنها ترتدي قناعا، ولم تكن متأكدة ما إذا كان فريجه لاحظ ذلك، هذا التصنع، أم أنها نجحت فيما كانت تعتمد عليه دائما في الماضي، أي الاستخدام البارع لعضلات الوجه، مع التوقيت المناسب، والأسنان ناصعة البياض، ونظرة دافئة – كل ذلك يولد صورة لا تُقاوم من الحيوية الطبيعية. التصنع يتطلب موهبة طبيعة أيضا، ولكن فينيا كانت مهتزة نفسيا جدا بسبب التأخر المهني الذي لحق بها – في عمرها هذا! لقد بلغت الأربعين! – ولهذا لم تعد متأكدة من الأثر الذي تحدثه موهبتها الطبيعية، أي أن تثير الإعجاب عمدا. الشكوك الذاتية، هكذا شعرت بالأمر، كانت تغطي مظهرها الخارجي مثل طفح جلدي.

لم يطلب كاي أوفه سوى "سلاطة الفلاحين"، الفكرة الأولى التي خطرت على بال فينيا أن تقول: أنا أيضا. غير أنها سمعت نفسها تطلب "جوفستي"! جاءها الطعام شبه بارد، ويقطر دسما. لماذا فقدت السيطرة على نفسها؟ لقد بدأ جسدها يترهل. عليها أن تحترس. صبّ الساقي المزيد من النبيذ. ألقت نظرة على كأس النبيذ وقالت لنفسها: 80 سعرا حراريا إضافيا. راحت ترتشف الماء، ثم استجمعت قواها، ونظرت إلى كاي أوفه، وحاولت وهي تضغط بشفتيها على كأس الماء التي أمسكتها بكلتا يديها، أن تسدد له نظرة متواطئة وفي الوقت نفسه مغوية. في سرها راحت تسب وتلعن. ماذا حدث لها؟

قال كاي أوفه:

– مظلة إنقاذ! يمكن نحت كلمات جديدة مثل هذه بالألمانية، ويكفي أن ترد ثلاث مرات في صحيفة "فرانكفورتر ألجماينه" حتى تصبح عادية تماما في نظر المثقفين. عندئذ لا يمكن التخلص من مثل تلك الكلمة. الرئيسة تكرر الكلمة أمام أي كاميرا، فيتصبب المترجمون عرقا. لا تعرف الإنجليزية والفرنسية سوى طوق الإنقاذ، أو المظلة الواقية من المطر. ولكن ما هي – هكذا سُئلنا – "مظلة الإنقاذ"؟ ترجم الفرنسيون الكلمة في البداية بـ"باراشوت". ولكن قصر الإليزيه اعترض: مظلة الهبوط من الطائرة لا تمنع السقوط، وإنما تبطئه فحسب، وهذه إشارة خاطئة، على الألمان أن ...

عندما أكل زيتونة، ووضع النواة على الطبق، قالت فانيا لنفسها: وكأنه يمتص مذاق الزيتونة فحسب، أما السعرات الحرارية فيعيدها إلى المطبخ.

عندئذ بدأ عويل صفارات الإنذار، ثم الضوء الأزرق، أزرق أزرق أزرق أزرق ...

– فريزر؟

– نعم؟

© 2018 Litrix.de

"عليك" – كادت أن تقول له: أن تنقذني. ولكن هذا مستحيل. صححت نفسها قائلة: أن تساعدني! لا، عليها أن تظهر بمظهر القادر، وليس الضعيف المحتاج إلى مساعدة.

– نعم؟

عبر النافذة نظر إلى فندق أطلس الواقع في الجانب الآخر من المطعم. رأى الرجال يخرجون محفة من سيارة الإسعاف، ثم ركضوا بها الفندق. رغم قرب مطعم "مينيلاس" من الفندق، فقد كانت المسافة الفاصلة كبيرة إلى درجة أنه لم يفكر في الموت. لم يتعد الأمر بالنسبة له عرضا راقصا، أشخاص يتحركون ناحية الضوء والصوت.

"عليك" – لقد نطقت بهذه الكلمة، والآن تود لو أنها لم تكن فعلت، ولكن هذا لم يعد ممكنا – ... "أن تفهم ... ولكنك بالفعل متفهم! أعرف أنك تفهم أنني ...

"نعم؟" نظر إليها.

نفير سيارات الشرطة.

عملت فينيا إكسينوبولو في البداية في الإدارة العامة للمنافسة داخل الاتحاد الأوروبي. لم يكن المفوض، رجل إسباني، يدري شيئا عن مجال عمله. ولكن كفاءة كل مفوض يحددها مكتبه، وهي لفتت الأنظار كعنصر متميز في المكتب الذي يعمل بكفاءة تامة. انفصلت عن زوجها. لم يكن لديها الوقت أو الرغبة في أن يجلس رجل في شقتها في بروكسل في نهاية كل أسبوعين، أو على أقصى تقدير كل ثلاثة أو أربعة أسابيع، أو أن تزوره هي في أثنيا، في حين يأخذ هو في الثرثرة عن الحياة الخاصة للطبقة الراقية في المجتمع الأثيني، وهو ينفخ دخان سيجاره، وكأنه كاريكاتور لمُحدث غِنى. كانت قد تزوجت وكيل نيابة، أما الذي طردته من شقتها فكان محاميا ريفيا تافها! صعدت درجة على السلم الوظيفي، وعملت في مفوضية التجارة. تعلو أسهم المرء في التجارة عندما يحطم العوائق التجارية. لم تعد لها حياة خاصة، لا قيود، لم تعد تعرف سوى التجارة العالمية الحرة. كانت تعتقد فعلا بأن مستقبلها المهني سيكون مكافأة لها على جهودها لجعل هذا العالم أفضل. كانت تنظر إلى التجارة الحرة باعتبارها من الحقائق في الحياة. فالتجارة شرط من شروط العدل العالمي. المفوّض الهولندي الجنسية كان من ذوي الضمائر الحية. كان مستقيما على نحو لا يُصدَق. عملت فينيا بمشقة كي تحسب له كم "جيلدر" يكلفهم ضميره! الرجل كان لا يزال يحسب بالعملة الهولندية "جيلدر"! ما يحصل عليه من أكاليل الغار عندما تقنعه فينيا بشيء، كان يساوي قيمته ذهبا! والآن يجب أن تأتي الطفرة التالية. كانت تنتظر أن تصعد درجة أخرى في السلم المهني بعد تشكيل المفوضيات عقب الانتخابات الأوروبية. وبالفعل: لقد رُقيت، وحصلت على إدارة. ما المشكلة؟ لقد شعرت بالترقية كأنها هبوط في السلم الوظيفي، كأنها استبعاد وإزاحة: أصبحت رئيسة للإدارة C (إدارة التواصل والإعلام) في قطاع الثقافة!

© 2018 Litrix.de

الثقافة!

كانت فينيا قد درست الاقتصاد في كلية لندن للاقتصاد، وقامت بدراساتها العليا في جامعة ستانفورد، ونجحت في اختبارات القبول في المفوضية، والآن تجلس في قطاع الثقافة – اللعب في بنك الحظ "مونوبولي" كان أكثر جدية! قطاع الثقافة قطاع هامشي، بدون ميزانية، بدون وزن داخل المفوضية، وبدون تأثير أو سلطة. الزملاء يشبهونه بشاهد نفي وقوع الجريمة – ويا ليته كان ذلك! شاهد النفي مهم، كل جريمة بحاجة إلى شاهد نفي! لكن الثقافة لم تكن حتى ذرا للرماد في العيون، لأنه ليس هناك عيون تبصر ما تفعله الثقافة. إذا حدث وذهب إلى دورة المياه خلال إحدى الجلسات مفوض التجارة أو الطاقة، أو حتى مفوضة صيد الأسماك، فإن النقاش يُقطع ولا يستأنف إلا بعد عودته أو عودتها. ولكن إذا تحتم على مفوضة الثقافة أن تنصرف، فإنهم كانوا يواصلون التفاوض دون اهتمام، لم يكن وجودها على مائدة التفاوض أو في دورة المياه يلفت انتباه أحد.

صحيح أن فينيا إكسينوبولو استقلت مصعدا ارتقى بها إلى أعلى، إلا أنه ظل متوقفا بين طابقين.

قالت لنفسها: لا بد أن أخرج! عندما عادت من دورة المياه، وجدته يتحدث في التليفون. لم ينتظرها.

مد "فريزر" وفينيا أنظارهما عبر الواجهة الزجاجية الكبيرة إلى الفندق، صامتين كأنهما زوجان متقدمان في العمر يشعران بالسعادة لحدوث شيء يستطيعان تبادل عدة جمل حوله.

– ماذا حدث؟

رد "فريزر":

– لا أعرف! ربما فاجأت أحد نزلاء الفندق نوبة قلبية؟

– ولكن الشرطة لا تأتي بسبب نوبة قلبية!

– صحيح.

قال ذلك، ثم توقف برهة، وكاد يقول: بمناسبة القلب. ما أحوال حياتك العاطفية؟ لكنه تجاوز السؤال. واصل قائلا:

– أنت تريدين أن تقولي لي شيئا!

– نعم.

– بإمكانك أن تحكي لي كل شيء!

أصغى إليها، وأومأ برأسه مرة بعد أخرى، ومن حين إلى آخر كان يقول "أوكى" وهو يمطها مطا، حتى يظهر لها أنه يتابع ما تقول، وفي الختام سألها:

© 2018 Litrix.de

- وماذا يمكنني أن أفعل لك؟
- عليك أن تعيدني. هل تستطيع أن – نعم: تنقلني؟ أريد العودة إلى التجارة. هل تستطيع أن تتحدث مع "كينو"؟ أنت على تفاهم جيد معه، وهو يسمع كلامك. ربما يستطيع هو أن يفعل شيئا. لا بد أن أخرج من الثقافة. إنني أختنق هناك!

"نعم"، قال لها. وفجأة شعر بالخوف. ربما هذه كلمة مبالغ فيها. شعر بانقباض لم يستطع تفسير سببه. لم يتأمل أبدا حياته. في الماضي كان يتأمل حياته – في الماضي البعيد، آنذاك لم يكن قد جمع خبرة حياتية. كانت تلك الأفكار خيالات، أحلاما، لقد خلط بين الأحلام والتأمل. لا يستطيع المرء أن يقول إنه سار وراء أحلامه. لقد ذهب إلى هناك، مثلما يذهب الإنسان إلى رصيف قطار معين، حيث تبدأ الرحلة إلى هدف معين. منذ تلك اللحظة وجد نفسه على قضبان السكة الحديد. كان يعلم في باطنه أن سيره على القضبان وعدم خروجه عنها كان في كثير من الأحيان مجرد حظ، وليس شأننا لا بد من التفكير فيه. الحياة. إما أنها تسير، أو لا تسير. إذا سارت، فإننا نقول: الإنسان يسير ويعمل. لم يفكر في كل ذلك. كان ذلك واضحا له ببساطة. كان يخلط ذلك الوضوح بالأرضية الصلبة التي يمشي فوقها دون أن يضطر في كل خطوة في التفكير بشأنها. ولكن هذه الأرضية تهتز اهتزازا خفيفا الآن. لماذا؟ لم يسأل نفسه هذا السؤال. لم يشعر إلا بهذا الانقباض الخفيف. والآن، لا بد أن أذهب إلى دورة المياه!

غسل يديه وتطلع إلى وجهه في المرآة. ليس غريبا عن نفسه. ولكن، "ليس غريبا" لا يعني "مألوفا". أخرج من محفظته قرص "فياجرا". يحمل معه دائما قرصا. وضعه تحت أسنانه، وتناول جرعة ماء، ثم غسل يديه مرة ثانية.

كان يعلم أن فينيا، مثله تماما، لا بد أن تخرج من منزلها في الصباح الباكر. أي أنها لا بد أن تذهب بعد فترة قصيرة إلى الفراش. عليهما أن يكونا جاهزين للعمل.

استقلا سيارة أجرة إلى حي "إكسل"، إلى شقته. تظاهر بأنه يشتهيها، وتظاهرت بأنها وصلت إلى الأورجازم. الكيمياء بين الاثنين متوافقة. عبر النافذة لمع الضوء الأزرق الصادر عن الإعلان الضوئي لبار "الوعل الأزرق" على الجانب الآخر من الشارع. نهض كاي أوفه فريجه مرة أخرى وشد الستارة.

هل ثمة رجل يقف عند النافذة؟ المنتقم الأسود. الشبح. الرجل الظل. بدا وكأنه شخصية من المجلات المصورة، مرسومة على جدار المنزل المهجور: كل نوافذ هذا البيت الواقع بشكل مائل أمام فندق أطلس، على ناصية شارع "دو لا بري"، كانت مظلمة، ألواح الخشب غطت واجهة عرض المحل التجاري، وعلى الألواح المُسمَّرة تطايرت بقايا ملصقات نُزعت نصفها. وبجوارها على جدار المنزل جرافيتي، وكلمات

© 2018 Litrix.de

مرشوشة بالبخاخة لا يمكن قراءتها – أسماء أماكن، خط سري، رموز؟ وأمام المنزل سور معدني مؤقت يحيط بورشة بناء عليه لافتة باسم شركة "دي مويتر" التي تقوم بنقل مخلفات البناء. بالطبع يعرف مفتش الشرطة برونفو أن هذا الشكل الأسود المؤطر بمربع النافذة في الطابق الأول من المنزل الميت ليس "جرافيتي". لكن الشكل بدا كذلك. في كل ركن من هذه المدينة هناك جدران لمنازل عليها "كوميكس" تصل حتى سقف المنزل، ومنها نسخ أو تنويعات لرسومات "هيرجه" أو "موريس"، أو حيوانات "بونوم"، أو أعمال الشباب الذين يعتقدون أنهم خلفاء أولئك الفنانين. إذا كانت بروكسل كتابا مفتوحا، فهي مجلد "كوميكس".

خرج المفتش برونفو من فندق أطلس حتى يعطي تعليماته للزملاء في سيارة الشرطة، للمرور على المنازل المجاورة والسؤال عما إذا كان أحد ربما كان ينظر بالصدفة من النافذة وقت وقوع الجريمة، ولاحظ شيئا.

– العام يبدأ بداية جيدة، يا حضرة المفتش!

رد برونفو:

– كل يوم يبدأ بداية جيدة.

خفّ المطر. وقف المفتش فاتحا قدميه، وشد سرواله لأعلى، وخلال حديثه مع الرجال ترك بصره يتجول على واجهات المنازل المقابلة. وهناك كان يقف: ذلك الخيال المؤطر بالنافذة.

هناك وقف حقا رجل عند الشباك. شباك منزل آيل للسقوط. ألقى المفتش نظرة إلى أعلى، وثبت نظره على الخيال. لم يتحرك الرجل. هل كان إنسانا؟ أم دمية؟ ولماذا تنتصب دمية هناك خلف الشباك؟ أم أنه خيال خادع للبصر؟ أم رسم جرافيتي؟ ابتسم المفتش. لم يبتسم ابتسامة طبيعية، بل داخلية. كلا، هناك يقف رجل! هل ينظر إلى أسفل؟ ماذا رأى؟

قال المفتش برونفو:

– هيا، إلى العمل! أنت تتولى هذا المنزل، وأنت المنزل هناك! وأنت –

– البيت الآيل للسقوط أيضا؟ إنه خالٍ!

– نعم، هذا البيت أيضا – ألق نظرة إلى أعلى!

في هذه اللحظة كان الرجل الظل قد اختفى.

© 2018 Litrix.de